لغز الحصان الذي هزم العرب

في عقر دارهم

قالوا إن الله خلقها من الريح السريعة، تلك هي الخيول العربية، واحدة من أقدم سلالات الخيل وأكثرها شعبية وانتشارا في العالم. وإذا كان الحصان العربي يفوز في المسابقات ويحصد الجوائز في جميع أرجاء المعمورة فهل يعقل أن يهزمه حصان بري هجين في عقر داره، في الصحراء التي لم يطيقها ولم يعرف أسرارها ومسالكها سواه. هذا ما يحاول الفلم الأمريكي هيدالغو (Hidalgo) إقناعنا به زاعما انه مقتبس عن قصة حقيقية لراعي بقر أمريكي ادعى بأنه عاش لفترة من الزمن في البادية العربية، وطبعا من حق صانع الفلم أن يزعم ما يشاء، لكن من حقنا نحن أيضا كمشاهدين أن نسأل : هل القصة حقيقية فعلا ؟.

سباق عربي للخيل لم يسمع به اي عربي!

الفيلم من إنتاج عام ٢٠٠٤ ويتحدث عن مراسل في الجيش الأمريكي اسمه فرانك هوبكنز (فيغو مورتنسن) يتنقل بواسطة حصانه الهجين هيدالغوا لإيصال الأوامر والرسائل العسكرية إلى وحدات الجيش المختلفة.

آخر رسالة عسكرية حملها هوبكنز كانت موجهة إلى وحدة عسكرية أمريكية مرابطة بالقرب من مخيم لإحدى قبائل الهنود الحمر، كان الأمر العسكري الذي حمله هوبكنز يقضي بتجريد القبيلة الهندية من سلاحها،

ورغم ان أفراد القبيلة رضخوا للأمر وقاموا بتسليم أسلحتهم طوعا إلا إن سوء فهم غير مقصود من احد الهنود الذي لم يفهم ماذا يراد منه لأنه أصم أدى إلى أن يفتح الجنود البيض نيران أسلحتهم بشكل عشوائي مرتكبين مذبحة دموية بشعة أدت إلى مقتل جميع أفراد القبيلة الهندية وهو الأمر الذي ولد صدمة كبيرة لدى هوبكنز وأشعره بالذنب فترك الجيش وعاقر الخمر واخذ يعمل في إحدى عروض رعاة البقر الأمريكيين التي تصور إحداث المجزرة التي ارتكبها الجيش بحق الهنود!.

في احد تلك العروض يحضر شخص عربي اسمه عزيز فيعجب بأداء هوبكنز وحصانه ويدعوه إلى سباق للخيل يقام في الجزيرة العربية يدعى "محيط النار" ويحاول حثه على المشاركة عن طريق إغراءه بالجائزة المالية الضخمة التي سيحصل عليها في حال فوزه. في البدء يرفض هوبكنز العرض، لكنه يعود ويوافق من اجل غاية نبيلة وهي إنقاذ خيول الهنود الحمر الهجينة (Mustangs) التي تهدد الحكومة الأمريكية بمصادرتها في حال لم يدفع الهنود مبالغ مالية طائلة مقابلها.

يتوجه هوبكنز إلى الجزيرة العربية ويلتقي بالشيخ رياض (عمر الشريف) المسئول عن السباق وابنته الوحيدة جزيرة (زليخا روبنسون)، وطبعا فأن الفيلم كغيره من الأفلام الغربية، وبدون أن نخوض في التفاصيل، يظهر الإنسان العربي على انه إنسان جاهل متوحش وغدار، مخادع وطماع، بينما تجتمع كل الصفات الحميدة والإنسانية في هوبكنز فتعجب به ابنة الشيخ رياض المتطلعة هي أيضا إلى الحرية والخلاص من تقاليد أهلها البالية والمتشددة.

يشارك هوبكنز في السباق الذي يمتد لـــ ٣٠٠٠ ميل عبر الصحراء العربية القاحلة، وفي إثناء السباق يفقد الكثير من المتبارين حياتهم وتظهر "دناءة" الفرسان العرب مقابل شهامة ومروءة هوبكنز الذي يفوز في النهاية متغلبا بحصانه الهجين على أصائل الخيول العربية!.

فيلم هيدالغو، كما أسلفت، اظهر العرب في صورة نمطية تعارفت السينما الغربية على إظهارهم بها خلال قرن من الزمان وأنا لن أتطرق إلى هذه الناحية كثيرا كما فعل الآخرون لأن لا فائدة من النقاش العقيم حولها ولكني سأكتب عن الشخص الذي زعم صناع الفلم انه مقتبس عن حياته، أي عن فرانك هوبكنز الحقيقي، فهذا الشخص كان بطلا حقيقيا، لكن ليس في سباقات الخيل والفروسية وإنما في الكذب واختلاق القصص التي لا يمكن لعاقل أن يصدقها.

الكذبة الأولى في حياة هوبكنز تتعلق بتاريخ ولادته، فهو يزعم انه من مواليد عام ١٨٦٥، لكنه عاد وقال إن عمره هو ٤٤ سنة وذلك حين تزوج عام ١٩٢٩ وهذا يعني إن تاريخ ولادته الحقيقي هو عام ١٨٨٥، أي انه كان في الخامسة من عمره حين سافر من الولايات المتحدة إلى الجزيرة العربية وفاز ببطولة سباق أسطوري يمتد لمسافة ٣٠٠٠ ميل عبر صحراء حارة وقاحلة قد يعجز عن اجتيازها أشد الرجال!!.

الكذبة الثانية والتي قامت عليها حبكة فيلم هيدالغو تتعلق بطفولة هوبكنز أيضا، فهو يزعم أن أبوه رجل ابيض فيما أمه امرأة من الهنود الحمر، لذلك فهو يظهر خلال الفلم متعاطفا مع الهنود الحمر ومتكلما بلغتهم

وينـاديه أفراد القبيلة بـــ "الطائر الأزرق" أي انه هجين، لكن المشكلة في هذا الادعاء هو أن الهنود الحمر الذين شاهدوا فيلم هيدالغو أعلنوا جليا بأن فرانك هوبكنز لا يمت لهم بصلة من قريب أو بعيد وأن جميع مزاعمه حول نسبه المختلط وعلاقته بالهنود الحمر هي من اختراع خياله الخصب كما اعترضوا على الطريقة التي تم فيها استخدام تراثهم ومآسيهم للترويج لفلم متخم بالكذب والمغالطات التاريخية.

في الفيلم كما في الواقع، ادعى فرانك هوبكنز انه عمل لفترة من الزمن مع بيل الثور (Buffalo Bill) والذي كان من أشهر شخصيات الغرب الأمريكي في ذلك الزمان وقد أطلق الناس عليه لقب الثور بسبب العدد الكبير من الثيران الوحشية الأمريكية (البايسن وهو في الحقيقة جاموس) التي قام بقتلها بنفسه، وكان بيل هذا يدير ما يمكن ان نسميه سيركا أو مهرجانا متنقلا يظهر فيه جوانب من حياة رعاة البقر الأمريكيين، وهذا السيرك أو المهرجان (Wild West Shows) كان مشهورا جدا في أمريكا وأوربا في أواخر القرن التاسع عشر، وهناك اليوم متحف خاص عن ذلك السيرك يحتفظ ضمن محتوياته بسجلات كاملة عن أسماء الأشخاص الذين شاركوا فيه، والمثير للدهشة حقا هو أن اسم فرانك هوبكنز لا وجود له البتة في أي من هذه السجلات!.

حفلت حياة هوبكنز بالعديد من الأكاذيب حول مغامراته ورحلاته البطولية، لكن يبقى السباق الأسطوري الذي فاز به فرانك هوبكنز عام ١٨٩٠ في الجزيرة العربية هو كذبته الكبرى، ويتفق العديد ممن اطلعوا على الادعاءات الزائفة لهوبكنز على انه كان يقتبس قصصه مما يقرأه في

الجرائد والكتب عن مغامرات المستكشفين والرحالة حول العالم، وأنا شخصيا اعتقد أن الرجل كان ذكيا جدا ليختار بقعة من الأرض مثل الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر حيث لم تكن تثير اهتمام العالم الخارجي ولم يكن الناس في الغرب يعلمون الكثير عنها، طبعا باستثناء بعض المستكشفين والمنقبين والجواسيس الانكليز، فلو كان هذا السباق الأسطوري يجري في أوربا أو أمريكا مثلا لأنكشف كذب هوبكنز منذ اللحظة الأولى لأن هكذا حدث كبير لا يمكن أن يمر دون أن تكتب عنه الصحافة ويتابعه الناس بشغف خصوصا أن الخيل في ذلك الزمان كانت مهيمنة كليا على وسائط النقل وتتمتع بشعبية كبيرة، كما إن عامل الإثارة الثاني في هذه الكذبة هي التغلب على الخيول العربية الأصيلة من قبل حصان هجين ... وأين ؟ في موطنها الأصلي! فإلى جانب صعوبة، إن لم نقل استحالة، هذا الأمر فأن الطريف هو أن حصان هوبكنز المزعوم، أي هيدالغو، لم يعثر له على أي اثر أو صورة أو تذكار يثبت بأنه كان حيوانا حقيقيا عاش في يوم من الأيام على هذه الأرض، والأطرف من كل ذلك هو إن من يعنيهم الأمر، أي العرب أنفسهم، لم يسمعوا في حياتهم قط عن سباق اسمه "محيط النار" يمتد لثلاثة ألاف ميل (٤٨٢٨ كيلومتر) وسط الصحراء، أي أنه ينتهي حتما أما في البحر أو في مكان ما في أوربا وقد يستغرق قرابة السنة ليصل الفرسان المتبارون إلى خط النهاية!!، وقد قمت بنفسي بمحاولة بسيطة لمعرفة كيف جرى هذا السباق واستعنت لهذا الغرض بخارطة كوكل لحساب المسافات (Google Maps Distance Calculator) وافترضت جدلا أن السباق قد بدء من مدينة عدن في

اليمن أي من ساحل الجزيرة العربية الجنوبي ولا يوجد أسفل هذه النقطة سوى البحر ثم جررت خطا باتجاه الصحراء العربية لأعرف أين تنتهي الثلاثة آلاف ميل فإذا بي اعبر السعودية والأردن وسوريا ولبنان وتركيا لينتهي بي المطاف أخير في بولندا في شمال أوربا!!! وقد كان الأجدر بصناع فلم هيدالغو أن يستعينوا بهذه التقنية البسيطة والمجانية ليعرفوا كذب ادعاء هوبكنز، طبعا أنا لا اقصد بأنه كان عليهم إلغاء فكرة صنع هذا الفلم ولكن كان عليهم احترام عقول المشاهدين وعدم وضع عبارة (مقتبس عن قصة حقيقية) في بداية الفلم.

في الختام ينبغي أن اذكر بأن احد الأكاديميين في جامعة الملك فيصل في السعودية قال بأنه لا يوجد هناك في تاريخ السعودية القديم أو الحديث أي سباق خيل بأسم "محيط النار" كما لا توجد أي إشارة إلى شخص بأسم فرانك هوبكنز ويبدو انه من غير المحتمل أصلا أن يكون قد وطء رمال الصحراء العربية بقدميه اللهم إلا في أحلامه وخيالاته التي قد لا يختلف اثنان على أنها كانت خصبة وجامحة.